الصقر

«The Falcon»

للكاتب السويدي: بير هالسترم per hallstrom

جرت عادة السّير «إنجراند» على الخروج للصيد كل يوم وغالباً ما يكون ذلك وقد لبس قفازه الموشى بالذهب وعليه يتربع صقره الأيسلندي الرائع ذو الأجراس التي تهتز باهتزازه فتبعث موسيقى روحية ساحرة، لاشيء يهزّ وجدان «إنجراند» كرجعها العذب البطولي الشجي، فيعبّ من نسيم الصباح العليل ما يملأ وجدانه ثملاً ونشوةً وزهواً.

وذات يوم اصطاد الصقر طيراً وحطَّ به دامياً في أحد السّباخ حيث أخذه الصياد فذكّاه. على أن الصقر ذاته قد طار بعد ذلك... لِمَ ولى دون رجعة؟ ذاك كان السؤال المحير... أتراه توغل في أعقاب طريدة؟ أتراه فتن بمرأى مياه البحر تعكس عسجد الشمس أم أن سحر السماء الممتدة أمامه زرقاء أزلية... لا حدود لها قد شغفته حباً؟ وعبثاً حاولوا إعادته بكل الأسماء المحببة ما تركوا قمة إلا وتردد فيها صدى لطبول شتى هزت مهاجع السكون، ولطم «إنجراند» شفة كبير الصيادين المرتعشة حتى نضح الدم منها ثم عاد بفم مطبق وعينين مسبلتين ألماً وحزناً على فقدان صقره الذي ما عثر له على أثر.

على أن «رينود» قد عثر عليه بعد إذ علق سيره الجلدي في أكمة ورد برّي.. وجده جاثماً دون حراك وقد كاد الجوع والعطش أن يفتكا به... كان أحد جناحيه عالقاً فيما كان الآخر حراً.. بارزاً في عناد وتحدٍّ وشموخ أما رأسه فمُمتدّ إلى الأمام... عيناه رغم ذلك كله كانتا ثابتتين ومنقاره مشرع فيما يشبه التهديد، وبدا جميلاً وسط غابة من التوت الأحمر كدم قان ـ وحرر «رينود» جناحه الحبيس بيدين أرعشتهما الرهبة والوجل فيما جلجل الجرس المحيط بعنقه

حاملاً شعار السير «إنجراند» وصاح «رينود» في غبطةٍ بعد أن استشعر انتقال ملكية الصقر إليه، ذاك الذي لم يكن يفوقه صقر في عرض صدره وطول جناحيه وذاك الذهب الكبريائي المصهور المنسكب من عينيه الثاقبتين.

ولم يطلع أحداً على نبأ اصطياده إذ إن القانون كان يحمي رياضة النبلاء تلك علاوة على أن ما قام به كان اعتداء واضحاً على حقوق الآخرين إلا أنه أصرّ على الاحتفاظ بالطائر بعد إذ افتتن به. وقرر أن يبني له قفصاً في الغابة، أجل ذاك سيكون أول ما سيفعله في الصباح قبل أن ينفض الصقر عن ريشه ذرات الصقيع، ولسوف ينطلقان عبر الحقول كل يوم حتى يتآلفان موغلين في دفء الآكام والشمس تعلو فوق رأسيهما وتهبط وأفكار محمومة شتى تدور فيها وسوف... سوف لن يحن الطائر أبداً إلى قفاز سيده الموشى بالذهب ولا إلى برقعه المطرز باللآلئ وربطه ثانية ثم عدا صوب النهر فجلب بطة اصطادها بحجر ولما التقطها الصقر أثملت النشوة فؤاد «رينود» إذ إن ذلك كان دليلاً على أن الصقر قد رضي به سيداً جديداً!

وأضحى الطائر ملك يمينه وكان يحني رأسه مصيخاً السمع بعيون ثاقبة متطلعة كلما مزّق سكون الفجر صوت تكسر الأغصان الرقيقة المتجمدة تحت قدمي سيده، وينتفض شامخاً ويهز جناحيه متأهباً للطيران كلما امتدت يد «رينود» إليه... فيهرعان عبر رقاع السباخ المتسعة صوب المجهول.

وحدقت أعينهما. بحدّةٍ في حمرة السماء القانية فيما بدت الآكام و التلال حالكة مدلهمة وكانت أغصان الأشجار الغافية مثقلة بأنواع شتى من الطيور... على أن حلكة السماء سرعان ما خفت وغدت تشع زرقة وعسجداً كما الذهب فأما حواشي الحقول فاكتست ألوانا بديعة فيما حطت بومة فجأة في كبد المجهول تبحث عن ملاذ وشقشقت العصافير في سيمفونية إقلاع نشوى، لكن «رينود» وصقره تباطآ نوعاً إذ إنها لم تكن سوى عصافير صغيرة لا تصلح للصيد.

وهناك تجاه السّباخ كانت طيور السمّن تطلق أصواتاً حادة طائرةً في دوائر واسعة... وتلك كانت الطريدة المناسبة وعلا الصقر في كبد السماء فارداً جناحيه القويين وصدره البارز وبَصُرَ «رينود» به وقد استحال لونه ذهباً لامعاً يخطف الأبصار بعد إذ سكبت عليه ذُكاء صبابتها. وتوقف فكر «رينود» عن العمل فيما أعمى النور الباهر بصره وهو يرقب الصقر محلقاً في أجواز الفضاء أبعد فأبعد، وحجمه يزداد ضآلة في صفحة اللازورد ورنين أجراسه كرجعٍ ساخرٍ لصيحاتِ طائر السمّن التي انتابها الذعر فحلقت في دوائر أكبر ثم خطر لها أن تهوي إلى الخضم تحتها فتخفي في حماقة رؤوسها في أمواج اليم المتكسرة. على أنها ارتأت أن تفرَّ إلى العلياء فتحلق في طبقات من الجو تعيي صيادها وتعجزه عن اللحاق بها. لكنه انقض وبسرعة على واحد منها كان يطير بمعزل... كانت سمّنةً جزلة... تاركاً البقية تطير في حركات حلزونية والرعب يزلزل أفئدتها.

كانت طريدته ـ في واقع الأمر ـ أقوى السرب ولم يكن غير ذاك ليرضي غروره بعد أن حنّ إلى الصيد ثانية واشتاق إلى ملمس الهواء يعبث بأجنحته قوياً ندياً ... علا أكثر فأكثر ثم أشرع مخالبه وهوى كالفولاذ المحموم على طريدته... شيء ما حينها كان هناك في الأعالي على وشك الانقضاض... وقد وازى العصفور حجماً بعد إذ قلصه الارتفاع الشاهق الذي فيه... وضعية جناحيه وجبروت انطلاقه ذلك كله عكس تلك النظرة المتوحشة المنبثقة ـ دون ريب ـ من عينيه وبأن مخالبه كانت كأحد وأشد ما يكون.

وهوى بشدة على رقبة طريدته العاجزة قبل أن يسقط الاثنان كحجر فما تحرك لهما جناح.

وعدا «رينود» نحوهما قطع المستنقع سباحة فخوضاً قبل أن تفيق السمّنة من وقع الصدمة فتقاوم في غمرة اليأس بمنقارها الحاد على أن الصقر عاجلها بالضربة القاضية ثم استدار إلى سيده محدقاً فيه بعينين واسعتين منتظراً أن يقدم القلب له إذ إنه ما كان ليلطخ ريشه بالدم .

وأطلقه «رينود» ثانية لكنه خفق بجناحيه على ارتفاع منخفض ثم عاد بكبرياء باردةٍ فحط ثانية على كتف الفتى الباسم.

بدا واضحاً أن الصقر كان مترفعاً عن الصغير من الطرائد... وسرعان ما كف «رينود» عن محاولة التصقير ثانية، واكتست نظراته ذات الجدية البعيدة المدى المنثالة من عيني الصّقر وأخلص له دون غيره، كرس له جلّ وقته... بدا له كما لو أنه قبس من روحه ذات الأجنحة العريضة المرفرفة كآماله وذات النظرات البعيدة كطموحاته التي لا حدود لها على أن هيامه به كان ينبض ألماً وتوجساً مخافة أن يحلق الطائر عنه بعيداً... بعيداً... ذات يوم وصليل أجراسه يشي بسخرية منه دفينة ثم... يمضي فلا يعود أبد الدهر إليه وتغدو بذلك حياته قفر كصحراء يباب وأمضته أفكار تشاؤمية شتى... ماذا لو لم يعد الطائر يطيع له أمراً... لو أمست نظراته جبال صقيع ليظل يصعقه بعينين تتضح منها اللامبالاة؟! وعجز عن التحديق في الصقر ثانية... جبن عن ذلك فيما اعتصر فؤاده همٌّ مفاده أنه قد لا يقتسم أيام الصفاء معه تارة أخرى فحلق في فضاءات الأحلام مجدداً.

واستلقى على الأرض السبخة ثانية مسنداً رأسه إلى باقة من الخلنج البري الأحمر فيما كانت الغمائم تمر أمام ناظريه زاحفة كأقدار البشر... ثقيلة وخفية حيناً... مركزةً... واضحة الخطوط وهائمة سارحة حيناً آخر والريح تمس منكبه دوماً بكفٍّ خفيفة تنحني لها الغصون الرقيقة وسط الآكام، وطفق يروي لطيره عذب الحكايا مستلقياً لما يزل وجاء الملك «آرثر» ثانيةً من أعالي البحار فتناول سيفه البتار «إكسكليبر» وكان يلمع بزرقة سماء المساء في طقس بارد ونهض فرسانه الإثنا عشر قبل أن تهز الأرض وقع أقدامهم الثقيلة وكان «غاريث» ابن الأمير حاضراً وقد ارتدى حلةً قشيبة تنبض بكل جمال الصبا وإيراق الأحلام الغضة الفتيّة.

وكان «رينود» يقف هناك على حصانه وهو سليل عائلة كريمة كذلك، حينما جثم الصقر على ساعده وقد أرخى النعاس رأسه، فيما لمعت عيناه سعادة واكتست بذهب شمس حكايا البطولة والإقدام.

على أن تلك الغمائم المنساقة كأقدار البشر سرعان ما احلولكت وركب بعضها بعضاً مشكلّةً قوساً عظيماً في لون المداد الأسود المحمل بالنذر الرهيبة تسلك شعاعات الشمس عبر منافذها الضيقة باهتة... حادة كحراب مسمومة... وتخللت منام الصقر أحلام مقضّة عن غضبٍ جريحٍ عاجز فاستيقظ مطلقاً صرخات حادة.

وسرعان ما وقعت أعين خدم السير «إنجراند» على صقره بيد «رينود» فقبض خدم النبلاء عليه واقتادوه إلى القلعة.. وارتجف المسكين حين أخذ الطائر منه... كان الصقر جامداً بادي الكبرياء... شامخاً كعادته لا تبدر منه بادرة... ولم يجِلْ فيما حوله بصره... وعندما دُفع به إلى سيده السير «إنجراند» لم يحاول الأخير أن يربت على صقره المفضل الذي لطالما حنّ إليه بعد إذ استشعر أن يداً ـ غير كريمة ـ قد مسته. وحدج السير «إنجراند» «رينود» بنظرة طويلة صامتة.

وتذكر قسوة ذلك القانون القديم الذي لا زال لحسن حظه سارياً والقاضي بإلزام من يحتفظ بطائرِ نبيل يحمل سمته بدفع ثنتي عشرة قطعة من الفضة أو يُقتطع من صدره مقدار ست آونسات من اللحم تحت وقع ضربات منقار حاد لطائر صيد بارع جائع!

وأدرك سير «إنجراند» مدى فقر الفتى «رينود» فألقى على صدره الأسمر العاري نظرة فاحصة قبل أن يمد يده فيتحسسه في حركة نمتّ عن برود رهيب، ويبعث خطاب دعوة إلى القلعة المجاورة داعياً قهرمانها وبناته ليحلوا ضيوفاً عليه قبيل الفجر كيما يشهدوا استعراضاً جويا لصقوره على أن يبدأ ذلك الاستعراض بعد القصاص من سارق خطير تم القبض عليه.

وأجال «رينود» من مقر سجنه ناظرين مثقلين حزناً وأسى حدق بهما في أطياف الغمام المنحسر صوب مصب الشمس الغاربة كربيع عمره، فيما أقبل السير «إنجراند» حاملاً الصقر على يده وقد حجب برقع كثيف النور عن عينين أرهقهما جوع أيام ثلاثة.

وأقبلت عربات فخمه تحمل بنات القهرمان... وكن يتبخترن جمالاً وحسناً فيما لمع شعرهن... أصفر في لون الذرة... شلال ذهب ينثال حسناً وجمالاً... وفي كبد السماء لمعت كذلك أنوار بهيجة تماوجت حواشي غمامها بألوان زاهية كأجنحة الفراش وأحاطوا ـ في شبه دائرة ـ بالسجين المقّيد الذي ألقى على الزائرات نظرة طويلة فانبهر بحسنهن واعتصر فؤاده ألم محض مؤداه أنه كان أمامهن يرسف في أغلال الأسر... وردد بينهن بصره فَبَدَوْن كطيورٍ رقيقة قد يفزعها إما أطلق صفيراً حاداً... ثم نقل بصره إلى ملامح الخدم الناطقة بالفضول وحب الاستطلاع ليستقر في نهاية المطاف على تلك السهول السمراء البعيدة الرحبة ينطلق عبرها حتى يكل ويحلم مستلقياً على ثرى بيدائها إلى أن يملّ!

واستشعر ما كان ينتظره من عقاب، على أن الطمأنينة سرعان ما خامرت فؤاده عندما أدرك أن صقره كان الموكل بإيقاع العقوبة عليه باقتطاع جزء من لحم صدره! ضحك في سعادة ونبض قلبه بكل إيقاعات الفخر والكبرياء التي كانت تعتمل في طيات روحه حينما كانت كلها ملك يمينه... الصقر الأيسلندي والنهارات المشمسة والحقول بطيورها المصغية في وجل... والرياح الهامسة تشخلل وريقات أشجار الخريف الصفراء.

لما أن رأى الصقر سماء الحرية ثانية واعتادت على مرأى النور عيناه... تاق إلى الصيد ثانية بعد إذ أمضه جوع ثلاثة أيام مضت حتى قدح الشرر من عينين كالبلور لا تذكران أحداً... على أن «رينود» حاول جاهداً أن يلتقي ببصره فما استطاع ما التقت عيناه بعينيه فابتلتا بدموع الأسى والشجن وحرقة الحرمان! ولو أن ناظري الصقر لمحتا عينيه لقرأتا فيهما كل شيء... شوقه وجرأته ولوعته... ورضاه وعذب المنى ينثال في الأفق البعيد أمامه وقد أسند رأسه إلى خلنج البرية الأرجواني كصفحة السماء الغافية في أحضان أرجوان المساء لكن عيني الصقر ما عكستا غير العدم... وذلك الانتظار المحض لأول طريدة تلوح أمامه بعد إذ أمضه الجوع والترقب... لا يعدل ذلك كله سوى نظرات الفضول من المحيطين بهما وابتسامة التهكم على شفتي السير «إنجراند».

وأحس «رينود» بطرقات الأسى أكثر من ذي قبل ثم استدار مدارياً فرط انفعالاته مطبقاً على هواجسه الدامية أجفانه. وبقي على حالته تلك فيما كان المنادي يتلو تفاصيل الحكم ثانيةً «دزينة قِطَعٍ من فضة أو ست آونسات لحم مما يلي القلب» وبذا يحمي السير «إنجراند» رياضة النبلاء!

ولم يرفع «رينود» رأسه حينما جُرح صدره كيما تغري رائحة الدم الصقر وعندما أنشب الصقر منقاره فيه ما ندت عنه صرخة... ما زاد على أن اهتز جسده قليلاً فلمعت عينا الصقر غضباً ومدَّ جناحيه كأنما سيرفرف ثانية بهما في أجواز السماء.

ومدت بنات القهرمان أعناقهن إلى الأمام وومضة اهتمام تشعُّ من أعينهن فيما جفلت الخيول حينما تسللت رائحة الدم إلى خياشيمها وضربت بحوافرها أرضاً غطاها الصقيع ونسيم الصباح يشرع أغطية سروجها، على أن «رينود» بقي صامتاً فيما رمقه الصيادون بنظرات ترقب بعد إذ طال انتظارهم لصيحات ألم تند عنه كيما يكتموها بضجيج أبواقهم.

كانت ضربة منقار الصقر الأولى قد اخترقت أنسجته الرقيقة وأحسَّ بأن فؤاده يوشك أن يرافق اللحم المقتطع، على أنه قد استشعر بعد ذلك ما يشبه التبلد الحسّي... فقد الإحساس طرًّا وكان مصدر ذلك ما ملأ وجدانه من فيض الرضى... والخدر الدواري... وذاك الشعور بقوة الذات في خضم جحيم التحدي وفيما كان النجيع يتدفق حاراً من صدره العاري والمنقار الحاد يعمل فيه تمزيقاً... أبحر «رينود» في خضم طيف غامر لذيذ بأحضان لازورد أحلامه البهية وفهم ساعتها كل شيء! أدرك المعنى العميق للموت والشرف والكرامة وكيف يوقد ذلك كله شمس قصص البطولات و الخلود الذهبية التي لا تغيب.

عندما تيقن السير «إنجراند» أن الآونسات الست قد استوفيت أعطى إشارة بالنفخ في الأبواق فيما أبعد الصقر المنتشي بمرأى الدم عن «رينود» وعيناه تلمعان ببريق كبرياء صامتة.

وتتالت مراسم الاحتفال تباعاً أما «رينود» فظل ثملاً بحلمه غارقاً في النشوة لما يزل وتركوه مستلقياً وقد توسد باقة من خلنج بري أحمر وأما الصقر فلم يعد إلى ذراع سيده السير«إنجراند» ثانية إذ إنه لم يكن ليشرب أبداً من قدح انطبعت عليه قبلة من شفتي آخر.

obeikandl.com